اطوار الزجل اللبناني

بقلم مارون عبود

ما اكثر الشعر في هذا الجيل الشاعر. كانت اساطيره، والأساطير مراعي الشعراء، خميرة الحضارة الاولى فطلع عجينها وأمسى خبزاً حياً على موائد الآلهة. ثم استحال في دنيا الأحلام عشاء سرياً تلذذت الانسانية الاولى بطعامه المقدس.

احلام رافخة تراءت للبناني الأول فعبرهـــا بصور شتى: صناعات ونقوش وحروف، دمى وأرجوان وزجاج. أوضح فكرته تارة بالنقش، وطوراً بالغناء، وأحياناً بالفتوحات الفنية فكان خياله العجيب منبع اساطيره الغريبة. ومشى لبنـــان والزمان في منعرجات التطور فاستعرب وراح يتذوق آداب لغته الجديدة مذ دارت الضاد على لسانه، وأبى عليه طموحه ان يقعد حسيراً فضرب فيها بسهم وطفق يقول الشعر فلم تنقد له اللغة فكان الزجل.

ليس «الزجل» الذي نعجب به ونعتز لسماعه ابن امس، فهو غير صغير السن ولا حديث الميلاد؛ كما قال الجاحظ حين أرّخ الشعر العربي. فالزجل اللبناني عريق، دوّنه تاريخنا منذ خمسماية سنة. فهلهله وامرؤ قيسه اسقف استعرب وتمغرب. نظم زجله أو شعره على عروض خاص استمد توقيعه من لغته الأولى «السريانية» وخلف للاجيال هذا الوزن تراثاً أو اساساً لشعرنا العامي الذي ارتقى الى ذروة الفن الأدبي.

المطران جبرايل ابن القلاعي اللفحدي هو القوال الأول. عاش في القرن الخامس عشر، وقال أزجاله في مواضيع اكثرها دينية طائفية.

قال عنه الدويهي في تاريخه الشهير: ولد جبرائيل بن بطرس اللحفدي في قرية تدعى لحفد من اعمال جبيل، وهي قرية قديمة طيبة الهواء كثيرة الديورة والكنائس ظهر منها كثير من الرجال الفضلاء. وأما جبرائيل فيكنى بابن القلاعي وابن غورية لأنه كان لوالديه بيت مبني بين القلاع، في مزرعة تدعى غورية من أرض لحفد، ومنذ صباه سلمه والداه إلى الخوري ابراهيم بن دريع، وهو رجل فاضل، ليدرس عليه اصول اللغة السريانية والعربية، فأخذ جبرائيل يجتهد ويجد، وكان رزين العقل مشغوفاً بالقول فنظم الزجليات. ثم خطب له والداه ابنة حسنة من ذوات قرباه فاعتراه استرخاء في عينيه فكرهته الخطيبة ولأجل ذلك زهد في العالم وهاجر إلى القدس الشريف وهناك انخرط في سلك رهبان القدس، وسافر معهم إلى رومية في سنة ١٤٧٠ ثم عاد منها إلى بيت المقدس سنة ١٤٩٣ بعد ما تخرج فيها واقتبس العلم، وبعد جهاد ثلث قرن سيّم مطرانا سنة ١٥٠٧ [١].

فهذا الشاعر العامي قضى حياته في الغرب بعدما فجع بحبه الأول، وكان من هذا شعر كثير وتصانيف شـــتى، يقول الدبس في ملحق تاريخ سوريا: ونظم قصـــائد كثيرة وان

(١) تاريخ الدويهي ص ٤١٢

فالشخصية لا يمكن ان تتجه ايجابياً وان تنتج وتبدع إلا بوحي ايمان شامل عميق. وقد يكون هذا الايمان دينياً او عقلياً أو علمياً أو قومياً. ومهما كانت طبيعته فلا بد من وجوده لتسيير الشخصية واعطائها مبدأ الحركة الدافع. اما جذور هذه المشكلة فهي فكرية فلسفية وتعود في الحياة العربية الى قصة الصراع بين العقل والدين، تلك المشكلة التي يجابهها المجتمع العربي منذ مئات السنين وما زال بعيداً عن حلها. وإذا تمّ أي حل جزئي فقـد قام على انقاض العقل، والحط من شأنه، وإضعاف سلطة الفكر وحقه في البحث الحر والاستقصاء الصريح. اننا لم ندرك بعد ان العقل والدين لا يمكن ان ينفي الواحد الآخر. اما التأرجح بين الاثنين عل اساس الغموض والاذعاء وتمويه الحقائق فقـد يؤدي بالنتيجة الى فقدان الاثنين معاً وبالتالي الى احاء الايمان. وهو الامر الذي يهدد الشخصية العربية ويعطيها الميوعـــة التي تتميز بها وعدم التحديد الواضح لمعالمها وبالتالي نقصان اليقين والحرارة للبناء.

قد تبدو هذه المشاكل على ظاهرها بسيطة ولكن نتائجها أبعد مما نتصور بكثير. ومن الصعب ان نتبين خطرها اذا لم نتألم كفاية من واقعنا العربي ونرجع اليها مسؤولية الفواجع التي ارهقته. انها لا تقرر مركز الفرد العربي في مجتمعه فحسب بل وفي المجتمع الدولي وتعطيه صورة معينـة اقرب الى الفقر ومركزاً ضئيلاً. ومعالم هذه الصورة ان الفرد العربي مضطرب مقلقل غير منتج، وانه بحاجة الى تغيير يمتد الى الجذور والاعماق ويخرجه من عالم العبودية المظلم الى عالم الانطلاق الفسيح.

ان مشكلة المجتمع العربي هي مشكلة الشخصية العربيـــة والفرد العربي.

جورج طعمه

كانت منحطة لغة فهي كثيرة الفائدة [1] .

ولما رأى هذا الاسقف البدع رافعة رأسها في وطنه هب مناضلاً مقدّم بشري عبد المنعم ، وقد بلغت رسائله وقصائده النضالية الخمسمائة وهي مكتوبة ومنظومة في مواضيع شتى .

ان الزجل اللبناني (المدوّن) يبدأ مع هذا المطران الذي حفظت لنا التواريخ بعض آثاره ، ومنها يستدل ان الزجل كالرجز ، بدأ بسيطاً ساذجاً ، كما يبدو لنا من آثار هذا الحبر العالم المحفوظة بمكتبة الفاتيكان بين كتبه .

طبعاً لم يقل ابن القلاعي ، وهو الاسقف الراهب ، زجله غزلاً ومعنّى ، بل قاله في مواضيع دينية قومية اصلاحية . نظم في (ميمر) كبير احبار طائفته ونضالها الروحي . فاستهل (ميمره) منددا براهبين خلعا النير ، وخرجا على معتقد طائفتهما فقال :

ابليس اب كل الطغيان نظر شعب مارون فرحان
حسده ورماه في احزان لأجل تنين كانوا رهبان
كان الواحد من يانوح والآخر من دار نبوح
كرزوا في السر الموضوح تكلم بهم روح الشيطان

★

وما اكتفى الزجال اللبناني الاول بارسال شعره بسيطاً على وتر واحد ، فازدوجت قيثارته ، فقال في ميمر آخر بالموضوع عينه ، وهو قصيدة رثى بها معلمه الراهب يوحنا

أرادوا يقولوا عنا ، في سر مخفي عظيم
إننا هراطقه قد كنا ، منذ الزمان القديم
جاوب الراهب حنّا ، عاد كل عالم بكيم
العقل منهم تحير ، غاب الصواب والبصر

فمن سماع نموذج من هذا الزجل ندرك امرين ، اولاً ان هذا الزجل أو الشعر العامي — سمه كما تريد — قديم العهد جداً في لبنان ، وانه ، وإن خلا من الصور الشعرية ، فهو يدل على شاعرية ابن الجبل الملهم ... ومن هذا الزجل القديم تولد شعر باللغة الفصحى ، أرقى من الزجل قليلاً . وظل يتمشى في التاريخ رويداً رويداً حتى استقامت لغته للمطران فرحات ولكهنة ورهبان آخرين . ثم خطا مع نقولا الترك وبطرس كرامه شاعري المير ، وظل يتطور حتى أوشك ان يبلغ قمة الشعر العربي بصوره الرائعة وموسيقاه الساحرة . اما الزجل فما قصر ، ولا توانى في الطريق . ارتقى ، بعد ثلاثة عصور ، مع القس حنانيا المنير فنحا منحى الشعر في خياله وصوره ، كما نرى من قصيدة (البرغوت) الرائعة . فهذا الراهب الشاعر قاسى من قرص البراغيث ما قاسى يوم لم يكن د.د.ت. لمكافحتها ، فقال يصف احدى المعارك الليلية مع البرغوث بحوار طريف ظريف فخلد زجله ، ومات شعره . قال :

بعدّ بيوت مع قصدان تا خبركم بللي كان
طول الليل وأنا سهران وصبّح جلدي كالجربان
جاني البرغوت وأنانايم وصار على صدري حايم
وقلّي من شهرين صايم بحسابي خلص رمضان
قلتلو لا تجدبني علامك انت مكاربني
بالله عليك لا تتعبني كل النهار وانا تعبان
قال لي ما انا بهمّك ان سرك او كان غمك
عشاني الليلة من دمك وبكره بيفرجها الرحمان
وقلي ما هو عاكيفك هالميله انا ضيفك
عيب عليك ويا حيفك يكون عندك وينام جيعان

ولا يفوت القس حنانيا ان (يبدع) في زجليته هذه ، فيدمج في زجله سياسة عصره قائلاً بلسان برغوثه :

قلي كلامك كلو فشار قرايبي وولادي كتار
وتربو عند الجزار وتسلطوا على البلدان

ويعجز القس فيتهدد خصمه بالشكوى فيجيبه :

حكم القاضي انا عاصيه ومن يومي انا معاديه
وفرمانو ما بعمل فيه وعلمي ما لو سلطان
قلت يا برغوت قلي كارك واهديني لباب دارك
قصدي اقطع جدّ ارك واحرق نسلك بالنيران
قال لي لعشيه بقلك وعلى باب داري بدلك
لمن بدخل بظلك وبرقصك مثل السعدان

هذه صورة عن الزجل الاول . اما مدرسة الزجل الكلاسيكية النابتة فروعها على هذا الجذع فهاك حديثها .

الطور الكلاسيكي

رافقت هذه المدرسة طفلاً ، فعلى انغام هذا الشعر واصدائه استيقظت نفسي ، فهو نشيدة مهدي وترنيمة سريري ، ولهذا انطبع في ذهني ، وهيهات ان يمحو الزمن ذكريات الصبا . ان هذا الشعر منبثق من اعماق نفوس اللبنانيين وقلوبهم ، من ظلمات اوديتهم وثرثرات انهارهم وجداولهم ، من اضوائهم

(١) الجامع المفصل ص ٢١١

وظلماتهم ، من عرازيلهم وخيامهم ، من قلق العجائز واحلام الصبايا . انه منسوج من خيوط شمسنا الذهبية ، لحمته من وراء البنفسج ، وسداه من خيوط القلوب ولهذا سمّوه المعنّى والعتابا . اما حياته الفنية فمستمدة من هواء وماء هذا الجبل المتصوّف .

لقد رافقت هذا الشعر رفقة عمر لا رفقة طريق ، استهواني فعشقته فرأيت فيه اصدق صور المحيط الذي أمدني بما نسميه الحياة . قرأت عن هذا الشعر في الكتب ، فعرفت كيف نشأ الزجل الاول مع ابن القلاعي اللحفدي ، فكان حافلًا بالمعاني ، وكاد ان يكون خالياً من الصور والالوان . ثم نظرت اليه فرأيت كيف تطور مع القس حنانيا المنيّر الزوقي . ثم اخرج من دائرة الكتب الى ألسن الرواة ، وما رواته إلا ابي وعمي وخالي وجيراني ، فصرت اطير فرحاً كلما سمعت بعرس جديد انتظره لاسمع المعنّى والقرّادي من ابن عمتي سركيس ومن ابن عمي طنوس عبود ، ومن طنوس المير والزغنا على نقر الدف . ثم نسمع العمّين انطون وارسانيوس يتباريان بقصيدة زجلية موضوعها مفاخرة بين (البيضا والسمرا) فتتطاول الاعناق وتتلاقى النظرات ، وتنقسم العرب عربين .

هؤلاء كانوا رواة الشعر اللبناني في ضيعتنا ، ومثلهم كثير في كل قرية ، فهم الذين غذوا مخيلتي بهذا الشعر الرائع الذي لا يزال يهز نفسي اليوم ، كما كان يهزها يوم كنت ابن اربعة عشر . ولهذا أراني بعدما سمعت من هذا الشعر ورويت وحفظت استطيع تقسيمه الى مدارس كالشعر الفصيح . فالشعراء الاولون هم ابن القلاعي والمنيّر وغيرهم كثيرون . اما الكلاسيكيون فهؤلاء هم شعراء القرن التاسع عشر وكان رواتهم عندنا من ذكرتهم لك . ان اكثر اسماء هؤلاء الشعراء مجهولة . وحالهم حال الشاعر العربي الفصيح المجهول ، فيقولون عند رواية شعر له : قال الشاعر ، وكفى . لقد تأسفت اشد الاسف لاني لم أدون قصائد غراء من هذا الشعر الذي يؤلف اصدق صورة عن الحياة والمحيط ، ولكن الحرب العظمى الاولى ذهبت بكثير من رواته ولم تترك في نفوسنا إلا اللوعة والحسرة عليه .

ان ذلك الشعر الذي سميته بالكلاسيكي مجهولة نسبته ، وقد اريتك نماذج منه كما سمعته من الرواة . انك ترى وتعرف ان لشعرائه جولات حساناً في ميادين شتى . اما اكثر اغراض هذا الشعر فحنين وعتاب ومساجلات .

وينقضي دور الرواة ويجيء دور التدوين بالطبع ، فاقرأ اول ديوان من هذا الشعر للياس الفران اشهر قوّالة زمانه ، ويقال ان الاستاذ ابراهيم الحوراني جاءه مرة فرآه منعكفاً يحوك على النول فقال له :

شفت الدبّ حرير يكبّ عمبيحيك آلاجا

فأجاب الفران :

ديّات بي الدهر الدبّ العمل منك خواجا

ثم تعارفا ، ولا تعجب ان تسمع الحوراني يقول فأكثر كبار شعرائنا قالوا الزجل . اما ما اذكره من قول الفران فهذه الردة وقد قالها في سيدة كانت ملكة جمال عصرها طول عمرها :

يا من فيك الحسن التمّ وعندك حطّت رحالو
ان شاهد حسنك بدر التمّ بيروح بيخبي حالو

أرأيت هذا الجناس ؟ ان الجناس قوام نوع آخر من هذا الشعر ويعرف بالعتابا وهو يستحق درساً على حدة . ثم يظهر ديوان شاعر اسمه نعمان فارس من ادة البترون . افتخر نعمان هذا في ديوانه فقال مورّيا في ختام احدى قصائده : نعمان فارس والجميع بيشهدو .

فرد عليه شاعر آخر كان يقف له دائماً بالمرصاد ، فقال له : تسمايا بيّك فارس كانت صدفه وخوري اللي عمّد بيّك فاقع خرفه

وظهرت دواوين اخرى اشهرها ديوان خليل سمعان وديوان شاهين الغريب فطفر الشعر العامي طفرة رائعة ، ونشرت قصة الدست والكيس لحنا الباني فكان القول الفصي .

وسمع صوت حلو هو صوت المرحوم رشيد نخله الذي انصرف عن الشعر الفصيح الى قول الزجل فكان اميره بحق . وعلى ألسنة اللبنانيين تدور له ابيات عائرة ومقطعات رائعة ، اما اتباع مدرسته الكلاسيكية فمشهورون يعرفهم القارىء ، وله اولى الملاحم في القول ، وهي محسن الهزان .

وتطور هذا الشعر تطور الشعر الفصيح فظهرت مدرسة جديدة مع ميشال طراد ثم اسعد سابا ، وهكذا نحا شعرنا العامي نحو الشعر الفصيح وظهرت له جرائد ومجلات ، وطبعت دواوين وعنيت به الصحف في الوطن والمهجر . وقد اهدي إلي من هذا الشعر المحبوب ديوان للشاعر اسعد السبعلي واسمه « عطور من لبنان » .

أهداه إليّ منذ سنوات، المرحوم شكري الخوري، صاحب جريدة «ابو الهول» البرازيلية، فرأيت فيه صورة اولئك الشعراء الذين سمعت شعرهم من ألسن الرواة . رأيت السبعلي طافح القلب بالحنين إلى وطنه ، فيصوره لك حتى تكاد تراه وكل ذلك بزجل كلاسيكي . أما في ديوانه الذي صدر بعدئذ فرأيته متأثراً بالمدرسة الجديدة ولكن بمقدار لا يخرجه من المنطقة الكلاسيكية وإن كثرت فيه الألوان . ففي هذا الديوان تصاوير محلية ذات ألوان كأنها الواقع المغذى بمخيلة الشاعر الملهم ، كقوله في مطلع ديوانه يناجي الضيعة :

وضيعة بجبل لبنان قلبي ودها نيسان عمتضحك زهورو بخدها
من جبالها هالسمر ايدك مدها بصدر السما بتلعب متل ما بدها
هي ضيعتي هي عرس لبنان النضير تموج بالألوان ترهج بالحلا
ونغمات حلوه تهز اوتار الجنان لمين يا عصافير الفلا هالمهرجان
والهدهد تغاوى بتاج وصولجان والهدهد مهودس بسفرة عالغدير
وقبل شق الفجر ولّف عالصلا
فراشات بيض وحمر غنجات ودلال
بترف عالازهار رفات الخيال
وحقله قطع سجاد تضحك للجمال
وجوزات خضر مكبّشي بصدر الجبال
بتبعت هواها عاليمين وعالشمال
وراعي يغني بو الزلف عن كتف شير
والراعية السمرا تقلّو يا هلا

لا استطيع نقل الكثير لضيق المجال ولكن خيال السبعلي يوقفني أين سرت في ديوانه . لقد أعجبني جداً تصويره حياة الشاعر القروي بقوله :

بعرزال طري عميحصد غمار الهوا
مضبضب على مراجيح عمتهدر هدير
ومفرّعا عا سطيحتو شمس الفلا

حلوة هذه الشمس (المفرعة) التي نضت ثيابها كفاطمة امرىء القيس، وأجمل من هذا وصفه أودية لبنان الرهيبة قال :

ووهرة الوديان عجقة عرس جان ودوار هادي مفرعه فيه الحسان
وعالحفا في ملوحة بالارجوان وشربين عن الايام عميقلي بيان
ويعطي متيلي عن خلود السنديان ومن دير رشتعمود بتشم العبير
بترد عنّك لمس حيطانو البلا

الشعر جميل وطبيعي جداً ولكن السبعلي يتجه نحو الالفاظ الفصحى فاسأله أن يقل منها لان التفاصح يفسد جو الشعر العامي فجمال هذا الشعر بغرقه في العامية إلى أذنيه . ويقول السبعلي من الوزن المعروف بالقرادي يصف مغارة :

بتمشي بنهر على شمالك صفصاف تهدّي بديها
بتشوف مغارة عا قبالك ضوي شمعا وفوت ليها
بتدخل ليها بتسمع حسّ وصرخة نهر تقلك هس
وباشباح الليل تحش وبتقول بها المغاره
غافي الدهر بعينيها

اما روح السبعلي الوطنية فظاهرة كالصخور التي يصفها في ديوانه ، واسمع هذين البيتين لتقدر تعلقه بوطنه :

دير مار يوسف تحت الشير عليه الوديان بتومي
مهيوب وأفخم بكتير من الفاتيكان برومي

ومن مميزات شاعرنا إجادته الحوار ، وله في ديوانيه روائع فاقرأهما إذا شئت ففيهما عطور لبنانية حقاً .

هذا هو الزجل الكلاسيكي ، منذ نشأته حتى الآن ، اما المدرسة الجديدة فحديثها يأتيك حين نتكلم عن «جلنار» ميشال طراد ، « ومن قلبي » لأسعد سابا ، وفي هذين الديوانين تتمثل المدرسة الرمزية في الشعر العامي ، ولعلها وفقت اكثر من اختها في شعرنا الفصيح ، وسنرى .

مارون عبود

الاسلام في العالم الحديث

في ثلاثة اجزاء

	ق.ل
١ ـ المسلمون في المتوسط الشرقي	٢٢٥
٢ ـ المسلمون في آسيا	١٢٥
٣ ـ المسلمون في المتوسط الغربي وافريقيا (تحت الطبع)	

من منشورات دار المكشوف